الأجراس تدق في سنكيانج!

بقلم: فهمي هويدي

وحدهم (الأيغور) لا يزالون في الأسر، الأفغان أطلق سراحهم قبل أيام، بعد سقوط نظام نجيب الله، ومن قبل استعاد إخوانهم في تركستان الغربية هوياتهم، حتى صارت لهم جمهوريات مستقلة، والقيرغيز والطاجيك رأي العين عبر الحدود، وقد رفع عنهم إصرهم وانفكت الأغلال التي طوقت أعناقهم.

لم يمر ذلك كله في هدوء، ولكن أصداءه تتفاعل الآن بقوة بين أولئك (الأيغور) المسلمين الذي لم ينسوا أن بلادهم بدورها اغتصبت، وأن هويتهم طمست، وأن الاسم الحقيقي لوطنهم هو تركستان الشرقية، رغم كل الخرائط الراهنة وما ألحقته بالصين تحت اسم (مقاطعة سنكيانج).

الأنباء التي تسربت من أورومتشي عاصمة المقاطعة تشير إلى أن مؤشرات التوتر تصاعدت بصورة ملحوظة خلال الأسابيع الأخيرة بوجه أخص، ورغم التكتم الشديد الذي تحيط به السلطات الصينية مجريات الأحداث في سنكيانج، إلا أن المعلومات التي نقلها قادمون من كاشغر، إحدى أهم المدن في سنكيانج، إلى العاصمة الباكستانية إسلام أباد تكشف عن ذلك أن التوتر يتفاعل في ثلاثة اتجاهات تمثلت فيما يلي:

أولا: زيادة أنشطة الجماعات الداعية إلى الانفصال، ويبدو أنها تعددت حتى أصحبت سبع جماعات في مقدمتها (الحزب التركستاني الإسلامي، الذي توجد بعض قياداته في تركيا، ويقال إن عناصره تحتفظ بعلاقات جيدة مع منظمات الجهاد الأفغاني، وفيما علمت من القادمين من كاشغر فإن بعض العناصر النشطة في الدعوة إلى الاستقلال تعرضت لملاحقات واسعة من جانب الشرطة الصينية، وأنها استطاعت أن تعبر الحدود إلى جمهورية قيرغيزيا المجاورة، وهي إحدى الجمهوريات الإسلامية التي استقلت حديثا عن الاتحاد السوفيتي.

وهذه هي المرة الأولى منذ أكثر من أربعين عاما، التي تجد فيها المعارضة التركستانية ملاذا لها وموطئ قدم على الجانب الآخر في الحدود الصينية، ويذكر في هذا

الصدد أن ثلاث جمهوريات إسلامية تشرف الآن على الحدود الصينية مباشرة، وتتاخم مقاطعة بسنكيانج، وهذه الجمهوريات هي: قازاقستان، وقيرغيزيا وطاجيكستان، ليس هذا فقط وإنما المسألة تتجاوز الجوار الجغرافي إلى الامتداد العرقي، باعتبار أن سكان هذه المنطقة كلهم، بمن فيهم العشرة ملايين مسلم الذين يعيشون في سنكيانج من أصول تركية واحدة، لهذا لم يكن غريبا ولا مفاجئا أن تحتمي المعارضة التركستانية بامتداداتها القبلية في قيرغيزيا، التي ينشط فيها بشكل ملحوظ (حزب النهضة الإسلامي).

ثانيا: إعلان السلطات الصينية لحالة الطوارئ بين قوات الشرطة والميليشيات، مع تكثيف الدوريات العاملة على الحدود، تزامن ذلك مع حملة إعلامية كبيرة قادها المسئولون في الحكومة في الحزب، تتهم المعارضة التركستانية (بالرجعية) والعمالة لجهات أجنبية، يهمها تفتيت الوطن الأم، وقبل هذا وذاك، فإن عمليات القبض على العناصر المشتبهة في معارضتها السياسية تجري بصورة منتظمة وعلى نطاق واسع.

ثالثا: تنشيط عملية تهجير الصينيين من مقاطعات أخرى في البلاد وتوطينهم في سنكيانج، وفي ذات الوقت مواصلة الضغط على المسلمين المقيمين بالمقاطعة وإجبارهم على مغادرة المقاطعة والاستيطان في مناطق أخرى بعيدية، والهدف من هذه العملية التي بدأت منذ سنوات عديدة بالمناسبة هو تغيير التركيبة السكنية للمنطقة، مما يؤدي في النهاية إلى تصيينها أي بتغليب عنصر الهان الصيني على عنصر الأويغور الذين هم أصحاب الأرض وسكانها الأصليون، ونجاح عملية التهجير يمكن أن يؤدي في المدى البعيد إلى تذويب القضية التركستانية، لم تتوافر أرقام عن الذين جرى تهجيرهم حديثا، لكن القدر المتيقن أن عدة آلاف من مسلمي سنكيانج ينقلون كل أسبوع إلى المقاطعات الأخرى في شاحنات تحرسها عربات الجيش الذي أرسلت تعزيزات منه إلى المنطقة الحدودية بعد مظاهر التوتر التي برزت فيها حديثا.

سجل حافل بالتوتر

ليس جديدا ذلك التوتر المخيم على المنطقة، فطمع الصين قديم في أرضها الغنية والشاسعة التي تزيد على مساحة تركيا مرتين ونصفا، وتعادل أربع مرات مساحة ألمانيا، وثلاث مرات مساحة كل من فرنسا وباكستان، وعندما استولت الإمبراطورية الصينية المنشورية على مملكة تركستان الشرقية في أواخر القرن التاسع عشر 1884م ثم أطلقت

عليها اسم سنكيانج أي (المستعمرة الجديدة)، فإن شعبها المسلم ظل يواصل انتفاضاته حتى استعاد حريته أخيرا، وشكل جمهورية تركستان الشرقية الإسلامية، برئاسة الحاج خوجة نياز في سنة 1933م (كان مقرها مدينة كاشغر).

غير أن هذا الوضع لم يلاق قبولا في روسيا التي كانت قد وضعت أيديها على تركستان الغربية، فقدمت المساعدة للقيادة الصينية لكي تبسط نفوذها على الجمهورية الإسلامية الوليدة مرة أخرى، وبعد صراع مرير دام سنوات، أخضعت المنطقة إلى الحكم الشيوعي الذي استولى عليها في عام 1949م، ومحا اسمها الأصلي، فيما أعاد إليها اسم سنكيانج، وأحلقها قسرا بالنظام الجديد، الذي استهل صفحته بإعدام 120 ألفا من علماء تركستان وأدبائها ورجالاتها البارزين، مما أطفأ جذوة المقاومة فيها لأجل غير قصير، مع ذلك فقد ظلت سنكيانج بمثابة بركان لا يهدأ، فلا يكاد يسكن سنوات معدودة حتى يعاود الانفجار مرة أخرى، وفي كل مرة كان الانفجار يعالج بقسوة وقمع لا حدود لهما، ولتعدد ثورات أبناء المنطقة، فقد شاع بين الصينيين مثل يقول: (إن الأويغور ينتفضون مرة كل خمسة عشر عامًا، ويقومون بثورة عارمة كل ثلاثين سنة).

في هذا الصدد فإن بعض الدراسات تشير إلى إحصاء بثته وكالة الأنباء الصينية في تايوان -تاريخ 4 يوليو (تموز) 1964م، وفيه إشارة إلى أن مسلمي سنكيانج قاموا بأكثر من 800 مرد وانتفاضة ضد الهيمنة الصينية حتى ذلك العام.

وإذا كان قد حدث في ظل الحكم الأشد قسوة (مرحلة الرئيس ماو) فلنا أن نتصور وقوعه على نحو أكبر في المرحلة الانفتاحية (نسبيا) اللاحقة، بوجه أخص، فإن الثمانينيات شهدت أشكالا متعددة من التمرد على الحكم الصيني في سنكيانج، وكان ذلك التمرد يعبر عن نفسه أحيانا عن طريق الاشتباك مع الصينيين المهجرين، وهو ما حدث مثلا في مدينة (دقسو) إبريل (نيسان) 1980م، عندما قتل أويغوري على يد صينيين، فقام الأويغوريون بالهجوم على منازل الصينيين وتدميرها، ثم واصلوا هجومهم على المصانع التي يعمل فيها الصينيون، واستمرت الاضطرابات عدة أيام، حتى تحولت إلى مواجهة بين التركستانيين المسلمين وبين بعض وحدات الجيش الصيني.

في العام ذاته (1980) دهس جندي صيني شابا أويغوريا بسيارته في مدينة كاشغر، وعندما قضت المحكمة بقتل الجندي قصاصا لجرمه، فإن فرقة الجيش الصيني

التي يتبعها الجندي منعت تنفيذ الحكم، فاشتبك الأهالي معها وامتدت ثورتهم أياما، ولم تقمع إلا بعدما حاصرت المدينة ست فرق من الجيش، وفتكت بالمسلمين بعد ذلك.

هناك حالات أخرى مماثلة تشير بوضوح إلى أن روح المقاومة لدى التركستانيين لم تستأصل جذوتها بعد، برغم التكلفة الباهظة التي تحملوها من جراء ذلك.

غير أنه مما لفت الأنظار في هذا السياق أن تظاهرات كبيرة خرجت في العاصمة أورومتشي (في ديسمبر (كانون الثاني) 1985) وأن الطلاب هم الذين قادوا تلك التظاهرات، التي لم تعبر فقط عن تحدي السلطة، وإنما قدمت مذكرة مكتوبة بطلبات محددة كان من بينها:

وقف تجارب التفجيرات النووية في تركستان الشرقية -وقف التهجير الصيني إلى بلادهم- وإغلاق معسكرات السخرة- إعفاء المسلمين التركستانيين من نظام تحديد النسل- إجراء انتخابات حرة لاختيار أعضاء الحكومة والحزب الشيوعي المحلي من الوطنيين- إعطاء الأولوية لشباب المسلمين للعمل في المؤسسات والمصانع في بلادهم (الصينيون كانوا يفضلون عليهم)، تمكين حكومة المقاطعة من استغلال ثرواتها وتحديث تركستان الشرقية.

جدير بالذكر هنا أن تلك التظاهرات حصلت في سنة 1985 وهي ذات السنة التي أعلن فيها الرئيس السوفيتي جورباتشوف عن سياسة البرويسترويكا (إعادة البناء) والجلاسنوست (المكاشفة أو المصارحة) ورغم أن ذلك التوافق ربما يكون محض مصادفة، إلا أن استمرار أمثال تلك التظاهرات لوقت لاحق فيما بعد، دفع الحكومة الصينية إلى إصدار أكثر من بيان رسمي في سنة 1988م يتهم الاتحاد السوفيتي بتحريض المسلمين ضد حكومة بكين، وكان أحد تلك البيانات يتضمن تحذيرا صريحا لموسكو بضرورة الكف عن تشجيع وإثارة الحركات الانفصالية في الصين (1988/8/30).

المخربون رمموا المساجد

عندما بدا أن الجمهوريات الإسلامية في الاتحاد السوفيتي (السابق) تتجه إلى الاستقلال في سنة 1990 كانت لتلك الرياح أصداؤها بين مسلمي الصين، ومن بين الشهادات التي سجلت ذلك التطور تقرير نشرته صحيفة (يرالد تريبون) في منتصف مارس من ذلك العالم قالت فيه: نتيجة للأحداث في جمهوريات آسيا الوسطى السوفيتية،

يظهر المسلمين في الصين البالغ عددهم 50 مليون نسمة إشارات لاضطراب متزايد تحت الحكم الشيوعي، وعندما أعلنت الطوارئ في جمهورية طاجيكستان السوفيتية التي ترتبط مع منطقة سنكيانج بحدود مشتركة وارتباطات عرقية، أعلن رئيس الوزراء الصيني لي بينج أن المقاطعة ذات الأغلبية الإسلامية تتوافر لها جميع عوامل الاستقرار، لكنه تحدث عن قوات مسببة للانشقاق في ثياب دينية قد تنفذ إلى فوفنا عندما نتصل بأناس من دولة ثانية، وهاجم إسماعيل صفوت وزير الأقليات أولئك الذين يثيرون الاضطرابات ويشرفون على نشاطات انفصالية تحت ستار ديني أو عرقي، واشتكى الوزير -كما ذكرت الصحيفة الأمريكية- من أن عمله أصبح أكثر صعوبة نتيجة لما أسماه بالصراعات العرقية في الاتحاد السوفيتي والتغييرات الراديكالية في أوربا الشرقية.

غير أن الأمور تطورت على نحو أكثر إثارة فيما بعد، فقد نشرت صحيفة (كريستيان سيانس مونيتور) في مستهل شهر يونيو (حزيران) من العام ذاته تقريرًا آخر أشارت فيه إلى وقوع (انتفاضة) في شهر إبريل (نيسان) قتل فيها 22 شخصًا من مسلمي (سنكيانج) وأشارت الصحيفة إلى أن السلطات الصينية قامت في يوم الثاني عشر من شهر مايو (أيار) بتشديد القيوم على الاتصالات الدينية الخارجية والتدريب الديني وبناء المساجد، طبقا لما ذكرته صحيفة (أكنيانج) اليومية الرسمية، التي قالت إن السلطات الصينية منعت المسحيين من بناء كنائس في مناطق يكثر فيها المسلمون.

نوهت الصحيفة الأمريكية إلى ما نشرته (أكنيانج) هو أول سرد مفصل للتخريب الخارجي المزعوم في المنطقة، وهو تخريب تسلل إلى سنكيانج (لأجل توزيع كتب دينية وأشرطة فيديو ونشر أفكار انفصالية).

ونسب إلى مسئول صيني إقليمي على مستوى رفيع قوله: (أن حفنة من الرجعيين تورطت تحت ستار الدين في نشاطات تخريبية، وقاموا بتنسيق أنفسهم مع انفاصليين من الخارج)، وأضاف ذلك المسئول واسمه محمداتي سيماي أن القوى المناهضة الخارجية التي تعمل في مدينتي (كاشغر) و(اكسو) بمقاطعة سنكيانج قامت بأعمال ترميم المساجد، ودعيت المسلمين إلى تأدية فريضة الحج! وحاولت تلك القوى تعبئة العواطف الانفصالية بين الحجاج الصينيين في الخارج.

أضافت (كريستيان يسانس مونيتور) أن تلك كانت الملاحظات الأولى من نوعها التي تصدر عن مسئول يؤيد ادعاءات بأن مسلمين من الخارج ساعدوا في إثارة الانتفاضة التي جرت في مستهل شهر إبريل (نيسان)، وقالت إن تلك العناصر الخارجية يقصد بها في غالب الخطاب السياسي الصيني مجموعة السيد عيسى يوسف آلبتكين، الذي كان سكرتيرا عاما لحكومة تركستان الشرقية في سنة 1949م، ثم هرب إلى تركيا إثر احتلال القوات الشيوعية الصينية لبلاده، ولا يزال يدافع عن قضية شعب تركستان حتى الآن.

إلى طور العنف المسلح

هذا العام استمرت الاضطرابات، ولكنها شهدت تطورا جديدا، اعتبر بمثابة منعطف لافت للنظر في مسيرة المعارضة الإسلامية بـ (سنكيانج) فقد كانت المعارضة في السابق تأخذ صورة الاشتباكات أو التظاهرات، إلا أنها في شهر فبراير (شباط) الماضي لجأت إلى أعمال العنف المسلح التي تمثلت في استخدام المتفجرات لإزعاج وإنذار السلطات الصينية.

فطبقا لما نقلته وكالة (رويتر) للأنباء في يوم 21 فبراير (شباط) فإن القادمين إلى بكين من مدينة (أورومتشي) عاصمة سنكيانج ذكروا أن أشخاصًا يشتبه في أنهم (انفصاليون) مسلمون فجروا (باصا) في المدينة خلا الاحتفالات التي جرت بمناسبة السنة القمرية في 5 فبراير (شباط) مما أدى إلى مقتل حوالي ستة أشخاص وإصابة ما زيد على عشرين آخرين بجروح، ونقل عن آخرين قادمين من (أورومتشي) أن قنبلة ثانية انفجرت في موقف للباصات، إلا أنها لم توقع إصابات في الأرواح.

أضافت رويتر أن القادمين من أورومتشى أشاروا إلى أن المسلمين والصينيين في عاصمة سنكيانج يتحدثون علانية عن الطموحات الانفصالية التي بعثها تفكك الاتحاد السوفيتي واستقلال الجمهوريات بوجه أخص، وهي طموحات شجعت المتطرفين من (الأيغور) على التطلع إلى أمل إقامة جمهورية تركستان الشرقية أسوة بإخوانهم على الجانب الآخر، الذين كانوا يعيشون في الماضي ضمن تركستان الغربية.

في الثامن من مارس (آذار) بثت رويتر من بكين خبرا يقول أنه في تطور نادر علم أن رئيس إقليم (سنكيانج) الذي يشهد بعض الاضطرابات، وجه أخيرا نداء علنيا، لشن حملة صارم على (الانفصاليين المسلمين) الذي اتهمهم بتصعيد حملة التخريب ضد الحكم

الصيني، وفي أوضح تلميح حتى الآن إلى تفاقم التوتر الذي يثيره دعاة الاستقلال في الإقليم الواقع في أقصى غرب البلاد، دعا تومور داوامات ريس الحكومة الشعبية في سنكيانج إلى شن حملة القوى المعادية في الداخل والخارج، التي تحاول فصل المنطقة الغنية عن الصين، ونسب إليه قوله في تقرير بثه تلفزيون سنكيانج أن الموقف الدولي المتغير أثر ولا يزال في الاستقرار الاجتماعي بالمقاطعة، وأن القوى المعادية في الداخل والخارج صعدت عمليات التسلل التخريب في الإقليم.

المعلومات التي سمعتها من القادمين من إسلام أباد خلال الأسبوع قبل الماضي تشير إلى أن تصعيد التوتر مستمر على النحو الذي سبقت الإشارة إليه، وإن ظلت التفاصيل محاطة بالكتمان المعهود في الخطاب الصيني، السياسي والإعلاميين وهو الأمر الذي يجعل عملية متابعة تطورات الموقف في سنكيانج من الصعوبة بمكان.

في كل الأحوال، فالقدر المتيقن أن الارتياح النسبي الذي ساد في بكين عقب انهيار الاتحاد السوفيتي -العدو اللدود- قد تبدد الآن وانقلب إلى شعور عميق بالقلق بسبب التوترات التي تشهدها مناطق الحدود، بعد استقلال الجمهوريات الإسلامية خاصة، وقد رفضت بكين حتى الآن الاعتراف باثنين من تلك الجمهوريات هما قيرغيزيا وقازاقستان بدعوى أن المشاكل الحدودية بينهما لم تسو بعد، وليس هناك ما يقطع بأن المسألة الحدودية هي السبب الوحيد لعدم الاعتراف، بعدما أشارت المعلومات الأخيرة إلى أن بعض المعارضين التركستانيين هربوا من سنكيانج إلى قيرغيزيا.

ثمة قلق أكبر لا بد أن السلطات الصينية تستشعره، ناشئ عن وجود أكثر من 55 قومية في داخل الصين، وهاجس الاستقلال الذي يلوح به التركستانيون المسلمون لن يكون الوحيد في البلاد، إذا قدر له أن يحقق أي إنجاز على ذلك الصعيد، بل إن هناك دعوات جاهزة للانفصال تتردد الآن في التيبت ومنغوليا على الأقل.

لهذا السبب فليس أمام الصين في مقاومتها لأمثال تلك الدعوات سوى طريقين أولهما مضاعفة القمع لسحقها بمختلف الوسائل وثانيهما العمل على إحداث نوع من الانفراج السياسي يحقق المساواة للجميع ويوفر لهم حدا مقبولا من الحريات واحترام الحقوق القومية المشروعة، وهذا الخيار الثاني هو الذي تدعمه باكستان، التي تجد نفسها في وضع دقيق وحرج، بحكم حرصها على صداقتها التقليدية مع بكين التي ظلت تواجه

بها محور نيودلهي موسكو خلال الثلاثين سنة الأخيرة، وتضامنها المفترض مع مسلمي سنكيانج في ذات الوقت.

في ظل هذا الوضع فإن استقلال شعب تركستان الشرقية يبدو أملا بعيد التحقيق في الظرف الراهن، لكن ذلك لا يحسم المسألة، لأن كل الذي شهدته آسيا وأوروبا الشرقية من تحولات مثيرة كان من جنس تلك الاحتمالات التي كان الجميع يعتبرونها بعيدة التحقيق!

مجلة (المجلة)

(العدد 639) 6 مايو 1992م